

دور علماء الإمامية في التفسير الموضوعي

• السيد الشهيد محمد باقر الصدر أنموذجاً •

م.م. نصير علي موسى شكر

المقدمة:

إن تفسير القرآن الكريم من الأهمية بمكان، وتتجلى هذه الأهمية في إيكال هذه المهمة إلى الرسول الأعظم (ص) من قبل الله سبحانه، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)، وقد قام بعده (ص) بهذا الدور أهل بيته الطاهرين؛ حيث يمثلون المرجعية الفكرية الشرعية بعد الرسول الأعظم (ص) بنص حديث الثقلين المتواتر.

ولقد قام الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته الطاهرين بالمهمة التفسيرية، وتركوا لنا صلوات الله عليهم آثاراً عظيمة عبر مروياتهم التي تناقلها الأصحاب؛ كي تكون تلك الروايات الشريفة سراجاً ينير لنا حقيقة المراد الإلهي من آياته الكريمة التي أنزلها على قلب حبيبه المصطفى محمد (ص).

بعد الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته الطاهرين، نهض أصحاب الأئمة (عليهم السلام) بهذه المهمة عبر تدوين وحفظ ما أثر عن أهل بيت العصمة. وما أن وصل الأمر إلى عصر الغيبة الكبرى حتى نهض العلماء الأعلام من أتباع المدرسة الإمامية بالمهمة التفسيرية، فظهر عندنا التفسير الترتيبي في القرن الخامس على يد شيخ الطائفة الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، ومن بعده أمين الإسلام الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، وهكذا استمرت الجهود التفسيرية لعلماء الطائفة حتى يومنا الحاضر حيث توجت بتفسير الميزان للعلامة محمد حسين الطباطبائي (ره) وتفسير مواهب الرحمن للسيد

عبدالأعلى السبزواري (ه).

أغلب التفاسير سارت على الطريقة المعهودة، وهو ما يطلق عليه بعملية التفسير الترتيبي، أو التفسير التجزيئي، أي أن يعتمد المفسر إلى تفسير القرآن آية آية حسب ترتيبه الموجود بالمصحف، مبتدئاً بسورة الفاتحة وخاتماً بتفسيره بسورة الناس، وكل تلك الجهود التفسيرية جهود مباركة، أفنى فيها علماءنا الأعلام أعمارهم، وبذلوا في سبيل إكمالها كل غالٍ ونفيس.

في القرن الرابع عشر الهجري بدأت بوادر انتشار أسلوب آخر في التفسير، وهو ما أطلق عليه فيما بعد (التفسير الموضوعي)، وخلاصة هذا الأسلوب هو قيام المفسر بجمع الآيات التي يجمعها موضوع واحد، ويبدأ بدراستها، مراعيًا في ذلك مسألة النسخ والمنسوخ، ومسألة ترتيب النزول، ثم بعد دراسته يحاول استنباط النظرية القرآنية حول المسألة محل البحث. وكان لظهور هذا الأسلوب دواع عدة، أول تلك الدواعي حرب العقائد والأفكار والايديولوجيات التي وفدت على الشرق مع ما ورد من الغرب من بضائع وتقنيات، إنها حرب بكل معنى الكلمة توجهت إلى الإسلام والمسلمين وإلى كتاب الله العزيز على وجه الخصوص، حيث بضربهم القرآن يسقطون كل العقائد والمبادئ التي يؤمن بها، إيمان تحقيق وبصيرة.

يذكر أن هذا الأسلوب التفسيري له مزايا عديدة، كما أن عليه مؤاخذات، سيتطرق البحث لمزاياه، ويذكر المؤاخذات التي أخذت عليه من قبل بعض الباحثين. وسيتضح عبر البحث أن هذا الأسلوب التفسيري كان موجوداً عند أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وقد أشاروا إليه، فهو أسلوب جديد بالتسمية قديم بالممارسة، وسنحاول ذكر بعض الأمثلة على ذلك.

وأشير إلى أن هذا البحث لن يتطرق إلى ذكر الباحثين والمؤلفين الكرام الذين أغنوا هذا الأسلوب من التفسير، فهناك مؤلفات وأبحاث ودراسات عديدة كتبت في هذا

الميدان؛ لأن هذا البحث يقتصر على دور المرجعية في إثراء هذا الجانب التفسيري، وقد اتخذ البحث من السيد محمد باقر الصدر أنموذجا في هذا الميدان.

الباحث

المبحث الاول

التفسير الموضوعي.. نشأته والآراء فيه

تعريفه:

(التفسير الموضوعي) مركّب إضافي، لذا سندكر تعريف (التفسير) أولا، ثم تعريف (الموضوعي)، ثم نعرض على تعريف (التفسير الموضوعي) كمصطلح. عزف الخليل التفسير بقوله: «فسر: الفسر: التفسير وهو بيان وتفصيل للكتاب، وفسره يفسره فسرا، وفسره تفسيرا»^(٢).

وعزف الشيخ الطريحي التفسير بقوله: «(فسر) قوله تعالى: ﴿وأحسن تفسيرا﴾ التفسير في اللغة كشف معنى اللفظ وإظهاره، مأخوذ من الفسر، وهو مقلوب السفر، يقال أسفرت المرأة عن وجهها: إذا كشفتها. وأسفر الصبح: إذا ظهر. وفي الاصطلاح: «علم يبحث فيه عن كلام الله تعالى المنزل للإعجاز من حيث الدلالة على مراده تعالى، فقوله المنزل للإعجاز لإخراج البحث عن الحديث القدسي، فإنه ليس كذلك»^(٣).

أما الموضوعي، ففي اللغة فاللفظة مأخوذة من الوضع، والوضع في اللغة الحط، قال ابن منظور: «وضع: الوضع: ضد الرفع، وضعه يضعه وضعاً وموضوعاً»^(٤). واصطلاحاً فإن (الموضوعي) له ثلاث معانٍ:

الأول: اللغوي، والموضوع لغة من الوضع، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء ذلك بمعنى الحط والخفض أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان.

الثاني: المعنى المستعمل في البحث العلمي المنهجي فيما يشترط فيه من التزام الباحث بقواعد العدل ورعاية الإنصاف والأمانة وعدم التحيز والذاتية، فيقال للباحث (موضوعي)^(٥).

الثالث: أن يكون المراد من المصطلح الإشارة إلى نقطة البداية أي الموضوع الذي يبتدأ به، حيث يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارت تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني، ويستمع له، لا ليتخذ دور المستمع والمسجل فحسب، بل لي طرح بين يدي النص موضوعاً جاهزاً مشرباً بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية ويبدأ مع النص القرآني حواراً، سؤالاً وجواباً^(٦).

وهنا لابد من التأكيد على أن هذا لا يعني — على الإطلاق — أن يقوم المفسر أو الباحث بفرض رؤاه ومتبنياته على القرآن الكريم، فليس هذا من التفسير الموضوعي في شيء، بل هو أقرب إلى التفسير بالرأي الذي ورد ذمّه والنهي عنه في كثير من الأحاديث الشريفة.

التفسير الموضوعي «محاولة دائمة لكشف نظرية القرآن بشأن تجارب بشرية يقاسيها أثناء مزاولاته في الحياة، فما هي نظرة القرآن الكريم بشأن واحدة فواحدة منها.. فما رافقه التوفيق حظي بالقبول والمشروعية، وما ناكه القرآن فمرفوض وغير مشروع»^(٧)، إذن فالمرجعية والمحورية هي القرآن الكريم والقاعدة التي ينطلق منها المفسر هو قولهم صلوات الله عليهم: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة».

نلاحظ من خلال المعاني الثلاثة أن المعنيين الثاني والثالث يدخلان في صميم البحث،

وإن كان الأدق أن المعنى الثالث هو المختص بالتفسير الموضوعي؛ لأن المعنى الثاني، مطلوب في كل التفاسير سواء أكان موضوعيا أو ترتيبيا أو غيرهما، فالإنصاف وعدم التحيز والأمانة وغيرها من شروط الموضوعية مطلوبة في كل البحوث والدراسات، تفسيرية كانت أو غير تفسيرية.

نرى ان الشهيد الصدر (قدس سره) قد حدد بشكل واضح ملامح التفسير الموضوعي وبين أبعاده وأشار إلى أركانه، فالتفسير الموضوعي محل البحث هو التفسير الذي ينطلق من أمور مستجدة تفرضها طبيعة الحياة وتطورها، وتتطلب من المفسر الموضوعي الاستجابة الفاعلة والردود العلمية المستقاة من كتاب الله تعالى حيث يقول تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٨).

تاريخه:

اختلفت آراء الباحثين حول تأريخ ونشأة هذا التفسير، فمنهم من يرى أنه قديم ومعروف عند الأقدمين محتوي ومنهج، ومنهم من قال بأنه جديد لا صلة له بالقديم، بل نشأ بفعل التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها العالم الإسلامي خلال القرن الأخير. ومنهم من قال بأن الممارسة قديمة، والجديد هو المصطلح والتنظير لهذه الممارسة وتلقيدها وتطويرها. وإلى هذا الرأي الأخير مال عدد كبير من الباحثين^(٩).

يرى الباحث أن الرأي القائل بأن (الممارسة قديمة، والجديد هو المصطلح والتنظير..) هو الأقرب للواقع، حيث أننا سنلاحظ من خلال المباحث القادمة كيف تم توظيف التفسير الموضوعي في صدر الإسلام على يد الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته الطاهرين، وسنعرض تطبيقات عدة له، وهذا ما يدعو الباحث إلى الاعتقاد بأن وضع اللبنة الأولى لهذا التفسير كانت في صدر الإسلام، والجديد في الأمر هو التسمية

يذهب بعض الباحثين إلى أن التفسير بشكل عام مرّ بأربعة مراحل: مرحلة التأسيس، مرحلة التأصيل، مرحلة التفريع، مرحلة التجديد^(١٠).

لا شك أن مرحلة التأسيس والتأصيل كانت على يد الرسول الأعظم (ص) وأهل بيته الطاهرين، حيث أسسوا قواعد هذا العلم ووضعوا أصوله.

أما المرحلة الثالثة (التفريع) فتمت بجهود أصحاب الأئمة (عليهم السلام) حيث أخذوا على عاتقهم القيام بمرحلة التفريع، وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق (ع) بقوله: «إنما علينا أن نلقي إليكم الأصول، وعليكم أن تفرعوا»^(١١)، وفي نص آخر عن الإمام الرضا (ع): «علينا إلقاء الأصول وعليكم التفريع»^(١٢).

أما المرحلة الرابعة (مرحلة التجديد) فقد نهض بها علماء التفسير، لا سيما علماء المدرسة الإمامية على مختلف العصور، وهذا ما نلاحظه بشكل جلي في مصنفاتهم التفسيرية التي أخذت طابعا موضوعيا، فقد ترك علماء المدرسة الإمامية العديد من المؤلفات القيمة في مجال التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سنشير إلى بعضها في المبحث الثالث الخاص بجهود علماء المدرسة الإمامية في التفسير الموضوعي.

يذهب صاحب الذريعة إلى أن محمد بن سائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ)^(١٣) هو أول من اعتمد هذا الأسلوب وذلك بأن جعل (الموضوع) أساسا في عملية جمعه للآيات، وذلك في كتابه الموسوم بـ (أحكام القرآن)، حيث يعدّ أول من صنف في هذا الفن لا كما يدّعي بعضهم بأن الشافعي سبقه إلى ذلك، لأن محمد بن إدريس الشافعي متوفى سنة (٢٠٤ هـ) كما ذكر العلامة السيوطي.

يقول صاحب الذريعة: «هو أول من صنف في هذا الفن كما يظهر من تاريخه لا الإمام الشافعي، وكذا صرح به في كشف الظنون في عنوان (أحكام القرآن) لأنه ولد

الإمام الشافعي بعد وفاة الكلبي بتسع سنين لأنه ولد سنة ١٥٥ ولا القاسم ابن أصبغ بن محمد بن يوسف البياني القرطبي الأندلسي الاخباري اللغوي المتوفى سنة (٣٤٠هـ) والمولود بعد وفاة الإمام الشافعي بثلاث وأربعين سنة؛ لأنه ولد سنة (٢٤٧هـ) كما ذكره أيضا العلامة السيوطي في بغية الوعاة، ثم إن جمعا من أصحابنا تابعوا الكلبي في أفراد آيات الاحكام وتفسيرها..»^(١٤).

التفسير الموضوعي بين المؤيدين والمعارضين:

كتاب الله العزيز الذي هو أقدس كتاب عند المسلمين جاءت آياته الكريمة مرتبة بترتيب نبوي ومستنده الإرادة الإلهية، حيث كان (ص) يأمر بوضع الآية الفلانية في المكان الفلاني، ومن ثم فهذا الترتيب هو ترتيب توقيفي للكتاب العزيز، حيث اقتضت الحكمة الإلهية أن يرتب الرسول الأعظم (ص) الآيات وفق هذا الترتيب الحالي للمصحف الشريف.

هذا بالإضافة إلى أن المسلمين في زمن الرسول الأعظم (ص) كانوا في غنى عن البحث الموضوعي، حيث الرسول الأعظم بين ظهرانهم يفسر لهم ما استعصى عليهم فهمه، ويعيشون التطبيق العملي للنظريات القرآنية على جميع الصعد، الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، العقائدية و.. «أما في عصرنا الحاضر فهناك نظريات أخرى في الواقع الخارجي تفرض على المسلم أن يندفع للتعرف على نظرية الإسلام في ذلك»^(١٥)؛ لذا يقول السيد محمد باقر الحكيم: «وأما في عصرنا الحاضر — وباعتبار وجود النظريات الأخرى في الواقع الخارجي — فقد برزت الحاجة إلى المنهج الموضوعي في التفسير لهذه الحاجة»^(١٦).

عامل آخر فرض على المسلمين ودفعهم إلى الاتجاه إلى هذا أسلوب التفسير الموضوعي — خصوصا في القرن الأخير — هو الهجمة الاستشراقية على الإسلام والمسلمين

وادعاء بعضهم بأن تعاليم الإسلام لا تتماشى مع العصر الحديث ومستحدثاته وما جد فيه من مسائل وقضايا في المجالات المختلفة، مما حدا بالمفسرين والباحثين الإسلاميين بالاتجاه إلى التفسير الموضوعي الذي وجدوا فيه ضالتهم، حيث كتبوا بحوثاً معمقة في جميع شؤون الحياة، خصوصاً تلك المصطلحات التي لم تكن مألوفة ومبحوثة من قبل كـ(نظام الحكم) و(الانتخاب) و(الصحافة) و(حقوق الإنسان) و(الديمقراطية)... وغيرها من مصطلحات العصر الحديث، وهذا ما يعبر عنه السيد محمد باقر الصدر بقوله:

«بالمقارنة بين التفسيرين نلاحظ أن للتفسير الموضوعي محاسن ومميزات كثيرة، بينما يوجد في التفسير الترتيبي عيوب وإشكالات، بحيث إنها لن ترتفع إلا بالتفسير الموضوعي. ومن أهم هذه الإشكالات التي تؤخذ عليه هو أنه لا يوضح الخطاب النهائي والجامع بالنسبة إلى نظر القرآن حول الموضوع، وتفسير آية واحدة من القرآن لا يعطينا المعنى الذي يتم تناقله في جميع الخطاب القرآني، في الوقت الذي نحتاج إلى تبين الخطاب القرآني النهائي مع ملاحظة فهمه في جميع الآيات المشتركة»^(١٧).

بالإضافة إلى أن أسلوب التفسير الموضوعي — حسب ما يراه الشهيد الصدر — هو الطريق الوحيد الذي نقدر على سلوكه كي نحصل على نظريات القرآن الأساسية في مواضع الحياة المختلفة^(١٨).

تجدر الإشارة إلى أن تأكيد السيد محمد باقر الصدر على أهمية التفسير الموضوعي على الترتيبي لم تكن من باب ترجيح التفسير الموضوعي على الترتيبي، بل قد أشار أكثر من مرة إلى أن التفسير الموضوعي والترتيبي يكمل أحدهما الآخر، وأن التفسير الترتيبي هو خطوة أولى والموضوعي خطوة أخرى متقدمة في طريق تكامل العملية التفسيرية، وفي هذا الصدد يقول: «... ويجب عن كثير من المسائل التي

تكون مرحلة تكاملية للتفسير الترتيبي»^(١٩).

إن منهجية التفسير الموضوعي تقتضي البحث عن الآيات من خلال ترابطها في الموضوع، لا على أساس الترتيب المصحفي، كما هو الحال في التفسير الترتيبي أو التجزيئي، من هنا طرحت إشكالات على هذا الأسلوب — أي التفسير الموضوعي — حيث عده البعض بأنه أسلوب جديد يبتعد عن الأسلوب القديم (الترتيبي)، ومن ثم الخوف من تفسير الآيات على هذا النحو، مخافة السقوط في التفسير بالرأي المنهي عنه؛ لذا ظهر على الساحة رأيان، رأي يدعم هذا الأسلوب من التفسير، ورأي آخر يعارضه، وقام كل فريق بحشد الأدلة على ما يذهب له.

من جملة الإشكالات المطروحة على أسلوب التفسير التجزيئي أن المفسر التجزيئي دوره في التفسير على الأغلب سلبي، فهو يبدأ بتناول النص القرآني المحدد آية مثلاً أو مقطعا قرآنياً، دون أي افتراضات أو طروحات مسبقة، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني على ضوء ما يسعفه به اللفظ مع ما يتاح له من القرائن المتصلة والمنفصلة.. وكأن دور النص فيها هو دور المتحدث ودور المفسر هو الإصغاء والتفهم، وهذا ما نسميه بالدور السلبي^(٢٠).

ومن جملة المآخذ على أسلوب التفسير التجزيئي هو أنه يكتفي بإبراز المدلولات التفصيلية للآيات القرآنية الكريمة، بينما التفسير الموضوعي يطمح إلى أكثر من ذلك^(٢١).

وفي المقابل، قدم الناقدون لأسلوب التفسير الموضوعي بعض ما يرونه من أسباب تجعلهم يتخذون موقف المعارض لهذا الأسلوب، حيث عدّ بعضهم أسلوب التفسير الموضوعي من باب (ضرب القرآن بالقرآن) واستند في دعواه هذه على بعض الروايات، وبصرف النظر عن البحوث الرجالية في صحة تلك الروايات أو عدمها، فإن التفسير

الموضوعي غايته وهدفه هو التوصل إلى نظرية ما في مجال ما، وهذا هو لب التفسير الموضوعي، أما (ضرب القرآن بالقرآن) فهو طريق سلكه أعداء القرآن محاولة منهم للحصول على مواقع للتناقض بين الآيات، أو تضارب فيما بينها، وفرق كبير بين من يسعى لجمع الآيات لاستخلاص النظريات القرآنية منها، وبين من يجمعها لغرض شيطاني بدافع من هوى أو تحامل على الإسلام والقرآن العزيز.

واتخذ بعض الباحثين جدة هذا الأسلوب وحدثته طريقا لرفضه، حيث قالوا بأننا لا نعثر على استعمال لهذا النوع من التفسير في البيانات الإلهية في القرآن الكريم، ولا في الأحاديث الصادرة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وكذلك لم يكن أسلوبا في تفاسير المفسرين القدامى، وسيتم ردّ هذا الكلام في المبحث القادم بحول الله تعالى، إلا أننا نقول لهم: إن العلوم كلها في تطور مطرد، فعلم الأصول، والفقه، والحديث، واللغة، لم تكن على ما هي عليه اليوم عند انطلاقتها في القرون الأولى، فقد تنوعت وتشعبت وتطورت كثيرا، ونظرة مقارنة سريعة في هذه الكتب بين الأمس واليوم تكشف لنا مدى التطور الفكري الذي حظيت به، من هنا فإن علم التفسير هو أحد العلوم الإسلامية، بل رأسها وسنامها، فكان لابد أن يتطور بما يتماشى مع حاجات الإنسان المستحدثة وما جدّ من أمور— في جميع جوانب الحياة— والتي لم يألّفها السابقون.

في حين قدّم الذين دافعوا عن هذا أسلوب التفسير الموضوعي أدلة تناصر طريقة بحثهم، وهذا ما نلاحظه بوضوح في كلمات السيد الشهيد محمد باقر الصدر حيث يقول: «إن قرونا من الزمن متراكمة مرّت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي لم يحقق فيها الفكر الإسلامي مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير ثابتا لا يتغير إلا قليلا خلال تلك القرون على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها

الحياة في مختلف الميادين..» (٢٢).

من جملة الإيجابيات التي ذكرها السيد محمد باقر الصدر ان أسلوب التفسير الموضوعي يستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني، لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب، بل لي طرح بين يدي النص موضوعا جاهزا مشربا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية، ويبدأ مع النص القرآني حوارا، سؤالا وجوابا، المفسر يسأل والقرآن يجيب (٢٣).

ويجمل لنا الشيخ مكارم الشيرازي إيجابيات التفسير الموضوعي بقوله:

« ١ - إزالة الإشكالات التي تبرز في بعض الآيات للوهلة الأولى، وحل المتشابه في القرآن.

٢ - الاطلاع على ظروف ومزايا وأسباب ونتائج المواضيع والأمور المختلفة المطروحة في القرآن الكريم.

٣ - الحصول على تفسير جامع بشأن مواضيع مثل (التوحيد) و(معرفة الله) و(المعاد) و(العبادات) و(الجهاد) و(الحكومة الإسلامية) ومواضيع مهمة أخرى.

٤ - الحصول على أسرار وإيحاءات جديدة من القرآن من خلال إلحاق الآيات ببعضها» (٢٤).

الشهيد الصدر رضوان الله عليه أراد التأسيس للنظريات الإسلامية أساسا قرآنيا، بحيث يكون المنطلق هو القرآن الكريم، والنصوص الشريفة الصادرة عن أهل البيت (عليهم السلام) باعتبارهم عدل القرآن، من هنا نجده يقول: «الحاجة إلى النظريات — يعني الحاجة إلى دراسة لنظريات القرآن والإسلام — تكون حاجة

حقيقية ملحة خصوصاً مع بروز نظريات عديدة من خلال التفاعل بين إنسان العالم الإسلامي وإنسان العالم الغربي بكل ما يملك من رصيد عظيم ومن ثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية» (٢٥).

أخيراً نقول: هناك عدد من الباحثين يقتصر التفسير الموضوعي على نوع واحد، وهو ذلك الذي يقوم باستخلاص النظريات القرآنية فقط.

والباحث لا يشاطر أولئك الباحثين رؤيتهم؛ إذ هناك نوعان من التفسير الموضوعي: تارة بحوزتك موضوع كـ (الشفاعة)، (الولاية)، (الخلافة)، (الشورى)، (العدل)، (نظام الحكم)، (القصاص)... فيقوم الباحث باستقصاء الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع؛ للإحاطة بكل أحكام تلك المسألة موضوعة البحث والإمام بكل تفاصيلها وأحكامها.

وأخرى يكون بحوزة الباحث موضوع ويريد استخلاص نظرية القرآن الكريم والتعرف على معالجة القرآن الكريم لذلك الموضوع.

وهذا ما أشار إليه الشيخ محمد هادي معرفة وأكد عليه قائلاً: «قد يكون بحثاً وراء مواضيع مطروحة في القرآن.. وأخرى عن مسائل معروضة على القرآن.. وكلا النمطين ذوا أهمية تمس واقع الحياة وفي شمول عام. إذ البحث عن مواضيع مطروحة في القرآن، بحث عن أصول وقواعد عامة عرضها القرآن لتكون دستوراً عاماً وشاملاً، يضمن سعادة الإنسان في الحياة، مع الأجيال والأعصار مع الأبد. فالوقوف على هذه الأصول العامة والقواعد الشاملة، ضرورة في كل وقت وفي كل عصر، لغرض الاستلهاً منها في حل مشاكل الحياة في جميع الأزمان، وهكذا البحث عن مسائل تطرح على القرآن، ضرورة يستدعيها واقع الحياة في كل زمان.. إذ فهم المشاكل حتم قبل عرض المسائل.. والعرض لا يمكن إلا بعد معرفة مواقع العرض في القرآن

المتناسبة»^(٢٦).

ويتضح من كلام الشيخ معرفة وجود نوعين لأسلوب التفسير الموضوعي: مواضيع مطروحة في القرآن وأخرى مسائل معروضة على القرآن.

المبحث الثاني

أهل البيت (ع) وتأسيسهم للتفسير الموضوعي

كان الرسول الأعظم (ص) هو المفسر الأول لكتاب الله العزيز، حيث وصفه الله سبحانه بأنه (ص) المبين لكتابه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢٧)، فكان المسلمون يرجعون إليه (ص) في كل صغيرة وكبيرة يستعصي فهمها عليهم، وكانت بياناته (ص) وأفعاله بمثابة تجسيد عملي للقرآن الكريم. وقد قام بهذا الدور من بعده الإمام أمير المؤمنين (ع)، وهكذا باقي الأئمة (عليهم السلام).

يقول الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو يتحدث عن القرآن الكريم: «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، ألا ان فيه علم ما يأتي والحديث عن الماضي، ودواء دلائكم، ونظم ما بينكم»^(٢٨).

يقول الشيخ محمد هادي معرفة: «التعبير بالاستنطاق الذي جاء في كلام ابن القرآن، هو أروع تعبير عن عملية التفسير الموضوعي بوصفها حواراً مع القرآن الكريم وطرحاً للمشاكل الموضوعية عليه بقصد الحصول على الإجابة القرآنية عنها»^(٢٩).

ولتوضيح عبارة «لن ينطق» ولرفع الإشكالية عن هذه العبارة؛ إذ كيف يدعو السيد الصدر إلى محاولة استنطاقه ومحاورته والنص العلوي يصرح بأنه (لن ينطق)؟ يجيبنا الشيخ ناصر مكارم الشيرازي قائلاً: «العبارات المذكورة تفسر بعضها

البعض الآخر؛ لأن القرآن حين يعبر عن القرآن بالصامت والناطق فمهوم ذلك أن كل تعبير ناظرٌ لشيء. مثلاً يمكن القول: القرآن صامت من حيث الظاهر، لكنه في الواقع تحدث بصوت جلي بليغ. أو أنه صامت إزاء الأفراد السطحيين، بينما هو ناطق تجاه العلماء المفكرين. أو أنه ناطق في مواصلة الطرق العملية الأصولية، أما بالنسبة إلى تطبيقها على مصاديقها استنباط الأحكام الفرعية (كقضية التحكيم في حادثة معركة صفين) فيجب على المجتهدين أن ينطقوا عنه»^(٣٠). وقال في موضع آخر: «(لن ينطق) ناظرٌ إلى بطون القرآن التي تقف وراء ظواهره، وإلا فإنه نزل بلسان عربي مبين»^(٣١).

أما بدايات التفسير الموضوعي، فقد كانت في عهد الرسول الأعظم (ص) والإمام أمير المؤمنين (ع)، حيث استعملا صلوات الله عليهما وآلهما طريقة الجمع بين الآيات التي تنتظم تحت موضوع واحد، ومن ثم استخلاص الحكم الشرعي، أو بيان تفاصيل موضوع ما وبيان أنواعه، ومن المؤكد أنه ما كان يمكن التوصل إلى مقصود الآية لولا الاستعانة على فهمها بآية أخرى تجمعهما الوحدة الموضوعية، وهذا ما أكدّه الإمام أمير المؤمنين (ع) ذلك بقوله: «إن القرآن يفسر بعضه بعضاً»^(٣٢) و«ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض»^(٣٣)، وهذا أحد الوجوه الإعجازية لكتاب الله تعالى إذ ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣٤).

ويعد د. الخالدي عملية الجمع تلك أولى لبنات التفسير الموضوعي حيث يقول: «فالرسول عليه [وآله] الصلاة والسلام جمع بين آيتين أولاهما من سورة الأنعام والثانية من سورة لقمان، هذا العمل المتمثل في الجمع بين الآيات وفي تفسير القرآن بالقرآن هو بذرة من بذور التفسير الموضوعي، والظلم المذكور في سورة الأنعام ليس

هو المعصية كما فهم الصحابة، وإلا لهلك معظم الناس؛ لأن الإنسان غير معصوم، وإنما الظلم المراد هنا هو الشرك بالله سبحانه» (٣٥).

صحيح ان التسمية بر(التفسير الموضوعي) لم تكن معروفة ومتداولة آنذاك، إلا أن الممارسة الفعلية لهذا الأسلوب كانت موجودة، والتسمية ظهرت بشكل فعلي في القرن الرابع عشر، حيث اتسع هذا الأسلوب وبدأت عملية التنظير له.

من هنا يرى الباحث أن القول بعدم وجود سابقة تاريخية في القرآن الكريم وأحاديث النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين مجرد ادعاء بدون دليل؛ لأنه توجد روايات كثيرة في التفسير الموضوعي صدرت عن الأئمة وكانوا صلوات الله عليهم يربون أصحابهم على ذلك، وقد مارسه أهل البيت (عليهم السلام) في القضايا التي تحتاج إلى إبراز نظرية القرآن الكريم ورؤيته.

وكان لهذا الاهتمام والظهور أسبابه الموضوعية، والتي منها تغير حاجات العصر وطروء المسائل المستحدثة، والهجمة الشرسة على الإسلام والقرآن من قبل كثير من المستشرقين، والحاجة الملحة إلى الإجابة على الشبهات والتساؤلات المطروحة من قبل الآخرين، خصوصاً أن القرآن الكريم نصت آياته الكريمة على عدم التفريط في أي أمر ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٣٦)، كل ذلك ساعد في نمو تطور هذا الأسلوب التفسيري.

يتحدث الشيخ معرفة عن الدور المحوري وصفة القيمومة للقرآن الكريم ودوره في الحياة المعاصرة فيقول: «من هنا تبقى للقرآن قدرته على القيمومة دائماً، قدرته على العطاء المستجد دائماً، قدرته على الإبداع، لأن المسألة هنا ليست مسألة تفسير لفظ، فإن طاقات التفسير اللغوي ليست طاقات لا متناهية، بينما القرآن الكريم دلت الروايات على أنه لا ينفد، وصرح القرآن بأن كلمات الله لا تنفد، القرآن عطاء

لا ينفذ ﴿عطاء غير مجذوذ﴾، بينما التفسير اللغوي ينفذ، لأن اللغة لها طاقات محدودة، وليس هناك تجدد في المدلول اللغوي.. ولو وجد.. فلا معنى لتحكيمه على القرآن» (٣٧).

هذه القيومية جاءت على لسان إمامنا الصادق (عليه السلام) حيث يقول: «إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا أنزل في القرآن؟ إلا وقد أنزله الله فيه» (٣٨).

إن التأكيد على أهمية التفسير الموضوعي لا تنفي — على الإطلاق — أهمية ودور التفسير الترتيبي، ولا تعني الاستغناء عنه، وإنما هي عملية تكاملية، فلكل أسلوب ثماره وأهدافه، وهما يسيران معاً لكشف آيات الكتاب العزيز ومعاجزه التي لا تقنى ولا تبلى حتى يرد على الله سبحانه. وفي هذا الصدد يقول السيد محمد باقر حجتى — بعد تأكيده على أهمية التفسير الترتيبي —: «إن رواج التفسير الموضوعي كفيل بالكشف عن موارد جديدة فيما يخص علوم القرآن، التي باستطاعتها بيان المزيد من حقائق القرآن، وكشف العديد من أسرار هذا الكتاب السماوي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» (٣٩).

الفرق بين التفسير الموضوعي وتفسير القرآن بالقرآن:

كثيراً ما لاحظنا عدم التفريق بين التفسير الموضوعي وبين تفسير القرآن بالقرآن، بحيث أن كثيراً من الباحثين يعتقدون أن تفسير القرآن بالقرآن هو نفسه التفسير الموضوعي، وبعضهم لا يعتقد بذلك، للإجابة على هذا السؤال يعتقد الباحث أن هناك فروقا أساسية بين التفسير الموضوعي وتفسير القرآن بالقرآن:

الأول: أن التفسير الموضوعي هو أسلوب، وتفسير القرآن بالقرآن هو منهج، ومن الواضح

أن الأسلوب يقوم بتوظيف المنهج في العملية التفسيرية، فالأسلوب أشمل من المنهج. والأسلوب لا يقتصر على توظيف منهج واحد، بل يوظف عدة مناهج بغية الوصول

إلى الهدف، وهو الكشف والإحاطة قدر الإمكان بمعاني الآيات الكريمة^(٤٠).

من هنا يمكننا القول بأن بينهما عموم وخصوص من وجه، فكل تفسير موضوعي هو تفسير للقرآن بالقرآن، وليس كل تفسير للقرآن بالقرآن هو أسلوب موضوعي.

الثاني: ان هدف التفسير الموضوعي من عملية جمع الآيات ذات الموضوع الواحد ودراستها وبحثها هو الوصول إلى النظرية القرآنية حول المسألة محل البحث، بمعنى أن المفسر يريد قاعدة عامة مستخلصة من الآيات الكريمة التي يجمعها موضوع واحد، بمعنى آخر: الخروج بنتيجة، الخروج بالرؤية الإلهية التي أودعها في كتابه العزيز، وهذا الهدف لا نجد في منهج تفسير القرآن بالقرآن.

الثالث: ان منهج تفسير القرآن بالقرآن هو تفسير ترتيبي (تجزئي)، بينما أسلوب التفسير الموضوعي يتخذ من وحدة الموضوع أساسا للعملية التفسيرية، ومن ثم يتابع الموضوع على طول القرآن الكريم دون الالتزام بالترتيب المصحفي.

باعتقاد الباحث ان هذه العوامل هي لب الاختلاف بين أسلوب التفسير الموضوعي ومنهج تفسير القرآن بالقرآن، وربما تكون هناك فروقات أخرى بينهما.

نخلص إلى أن كلا الطريقتين تختلف عن الأخرى اختلافات جوهرية، ولا يمكن إطلاق اسم أحدهما على الآخر. وللوقوف على حقيقة الاختلاف بينهما سنذكر بعض الأمثلة لكل من الأسلوب والمنهج.

بعض الأمثلة على منهج تفسير القرآن بالقرآن:

١ - تعيين أقل مدة للحمل:

«روي عن يونس عن الحسن أن عمرأتي بامرأة قد ولدت لستة أشهر فهم برجمها، فقال

له أمير المؤمنين (ع): إن خاصمتك بكتاب الله خصمتك، إن الله عز اسمه يقول: ﴿وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٤١)، ويقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْتِمَ الرُّضَاعَةَ﴾^(٤٢)، فإذا تَمَّت المرأة الرضاعة سنتين وكان حملها وفصاله ثلاثين شهرا، كان الحمل منها ستة أشهر، فخلى عمر سبيل المرأة وثبت الحكم بذلك، يعمل به الصحابة والتابعون ومن أخذ عنه إلى يومنا هذا»^(٤٣).

في هذه الرواية يظهر بوضوح أن الإمام أمير المؤمنين (ع) بالاعتماد على الآيتين الكريميتين استخرج أقل مدة للحمل. وهذا الاستنتاج لا يتأتى لكل من أراد ذلك، فالإمام هو القرآن الناطق، ومفسره الأول بعد الرسول الأعظم (ص).

٢ - تعيين الإمام الجواد (ع) موضع قطع اليد عند السارق:

نقل صاحب البحار: «أن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي فسالنا عن القطع في أي موضع يجب أن يقطع؟ قال: فقلت: من الكر سوع. قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قلت: لأن اليد هي الأصابع والكف إلى الكر سوع، لقول الله في التيمم ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِمَّا﴾^(٤٤) واتفق معي ذلك قوم.

وقال آخرون: بل يجب القطع من المرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟

قالوا: لأن الله لما قال: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٤٥) في الغسل دل ذلك على أن حد اليد هو المرفق.

قال: فالتفت إلى محمد بن علي (ع) فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلم القول فيه يا أمير المؤمنين، قال: دعني مما تكلموا به! أي شيء عندك؟

قال: اعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه. فقال: أما إذ أقسمت علي بالله إني أقول إنهم أخطأوا فيه السنة، فإن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف.

قال: وما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فإذا قطعت يده من الكر سوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾^(٤٦) يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٤٧) وما كان لله لم يقطع.

قال: فأعجب المعتصم ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف. قال ابن أبي دواد: قامت قيامتي وتمنيت أني لم أك حيا»^(٤٨).

هذه الرواية الشريفة أيضا من مصاديق تفسير القرآن بالقرآن، وكون التعبير باليد يحتمل ثلاثة احتمالات، فقد وقع الاختلاف في تعيين مكان القطع، فقام الإمام الجواد صلوات الله عليه بتعيين الحكم الإلهي عن طريق الاستعانة بآية أخرى.

أيضا مسألة الظلم الواردة في الآية الشريفة، وقد تقدمت الإشارة لها، فقد أشكل على الصحابة فهم معنى الظلم الوارد في الآية الكريمة ﴿وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فقالوا: وأينا لم يظلم يا رسول الله! فقال (ص) ليس ذاك، وإنما الظلم هنا (الشرك) بالله سبحانه، يقول تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

بعض الأمثلة على أسلوب التفسير الموضوعي:

كما مر سابقا في أوائل البحث، أن التفسير الموضوعي هو جديد في مصطلحه، قديم في ممارسته، وهذه الممارسة كانت على يد الرسول الأعظم (ص) وأئمة آل البيت صلوات الله عليهم، يتجلى ذلك من خلال الفحص الدقيق والنظرة الفاحصة المتأنية لكلماتهم صلوات الله عليهم، حيث جمعوا بين الآيات الشريفة واستخرجوا الرؤية

القرآنية من تلك الآيات، استخرجوا النظرية التي يمكن أن تكون أساسا لكل زمان ومكان، فنظريات القرآن عابرة للزمان والمكان؛ لأنه كلام الله المعجز الذي وصفه أمير المؤمنين بقوله «إن القرآن ظاهره أنيق. وباطنه عميق. لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به» (٤٩).

إذن هذه دعوة لاستنطاق القرآن الكريم، وتبرز هنا الحاجة إلى دراسة الروايات التي أثرت عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام) دراسة موضوعية، واستخراج العلوم والمعارف التي أودعها أهل البيت (عليهم السلام) في رواياتهم التي فسروا بها القرآن الكريم، حيث بالإمكان جمع الروايات التفسيرية على الصعيد الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو العقائدي أو غيرها من المجالات، والخروج منها بنظرية قرآنية متكاملة.

نعم من المهم بمكان أن نشير إلى أن استخراج النظرية القرآنية من كتاب الله تعالى ليست عملية سهلة وفي متناول اليد، فالرسول وأهل بيته الطاهرين (عليهم السلام) هم عدل القرآن، هم المؤتمنون على وحي الله سبحانه، والمبلغون رسالات ربهم، وهذه المهمة مناطة بساحتهم الشريفة أولا.

إلا أن ذلك لا يعني أن لا يعمل المفسر جهده ويبذل وسعه وطاقته، ويستعين بإرشادات وإشعاعات أنوار أهل بيت المصطفى، وهذا ما دعانا إليه الرسول الأعظم في بياناته الشريفة، وكذا قول الله سبحانه في كتابه ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ فكل يغترف على قدر سعة إنائه من هذا البحر العباب. خصوصا إذا كانت تلك الاستنتاجات والنظريات تستهدي ببيانات أئمة آل البيت (عليهم السلام) وتستعين بكلماتهم على إنجاز هذه المهمة الصعبة، أي: استخراج النظريات القرآنية.

سنحاول هنا ذكر بعض الأمثلة من كلمات أهل البيت صلوات الله عليهم، والتي تشير إلى أنهم صلوات الله عليهم كانوا هم رواد هذا المجال:

١ - حقيقة الإيمان ومراتبه.. زيادته ونقصانه:

تعددت النظريات الإسلامية حول حقيقة الإيمان ومراتبه، وهل هو بدرجة واحدة عند الجميع، أم أنه يزيد وينقص من شخص إلى آخر، وقد أدلى الأشاعرة والمعتزلة والمرجئة بأقوالهم واختلفوا في ذلك اختلافا كبيرا.

في هذه الرواية الشريفة يضع الإمام الصادق صلوات الله عليه النظرية الإمامية حول حقيقة الإيمان وماهيته، ويبين لنا (ع) درجاته ومراتبه، وهي:

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن بكر بن صالح، عن القاسم بن بريد قال: حدثنا أبو عمرو الزيري، عن أبي عبد الله (ع) قال: قلت له: أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئا إلا به، قلت: وما هو؟

قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو، أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسنها حظا.

قال: قلت ألا تخبرني عن الإيمان، أقول هو وعمل أم قول بلا عمل؟

فقال: الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بين في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه، قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه.

قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص

البين نقصانه، ومنه الراجح الزائد رجحانه، قلت: إن الإيمان ليتّم وينقص ويزيد؟ قال:

نعم، قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم

وقسمه عليها وفرقه فيها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير

ما وكلت به أختها، فمنها قلبه الذي به يعقل ويفقه ويفهم وهو أمير بدنه الذي لا

ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها عيناه اللتان يبصر بهما وأذناه اللتان يسمع بهما ويدها اللتان يبطش بهما ورجلاه اللتان يمشي بهما وفرجه الذي الباه من قبله، ولسانه الذي ينطق به ورأسه الذي فيه وجهه، فليس من هذه جارحة إلا وقد وكلت من الايمان بغير ما وكلت به أختها بفرض من الله تبارك اسمه، ينطق به الكتاب لها ويشهد به عليها .

ففرض على القلب غير ما فرض على السمع وفرض على السمع غير ما فرض على العينين وفرض على العينين غير ما فرض على اللسان وفرض على اللسان غير ما فرض على اليدين وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه، فأما ما فرض على القلب من الايمان فالاقرار والمعرفة والعقد والرضا والتسليم بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إلهها واحدا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأن محمدا عبده ورسوله (صلوات الله عليه وآله) والاقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب، فذلك ما فرض الله على القلب من الاقرار والمعرفة وهو عمله.

وهو قول الله عز وجل: ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾.

وقال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

وقال: ﴿الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾.

وقال: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ فذلك ما فرض الله عز وجل على القلب من الاقرار والمعرفة وهو عمله وهو رأس الايمان وفرض الله على اللسان القول والتعبير عن القلب بما عقد عليه وأقر به قال الله تبارك وتعالى ﴿وقولوا للناس حسنا﴾.

وقال: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم والهنأ والهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ فهذا ما فرض الله على اللسان وهو عمله وفرض على السمع أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله وأن يعرض عما لا يحل له مما نهى الله عز وجل عنه والاصغاء إلى ما أسخط الله عز وجل فقال في ذلك: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستتهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ ثم استثنى الله عز وجل موضع النسيان فقال: ﴿وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾ وقال: ﴿فبشر عباد سلطان الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هديهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾، وقال عز وجل: ﴿قد أفلح المؤمنون سلطان الذين هم في صلاتهم خاشعون سلطان والذين هم عن اللغو معرضون سلطان والذين هم للزكاة فاعلون﴾، وقال: ﴿إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾، وقال: ﴿واذا مروا باللغو مروا كراما﴾ فهذا ما فرض الله على السمع من الايمان أن لا يصغي إلى ما لا يحل له وهو عمله وهو من الايمان.

وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرم الله عليه وأن يعرض عما نهى الله عنه، مما لا يحل له وهو عمله وهو من الايمان، فقال تبارك وتعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ويحفظ فرجه أن ينظر إليه وقال: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر إليها وقال: كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية فإنها من النظر. ثم نظم ما فرض على القلب واللسان والسمع والبصر في آية أخرى فقال: ﴿وما كنتم

تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ يعني بالجلود: الفروج والأفخاذ وقال: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾، فهذا ما فرض الله على العينين من غض البصر عما حرم الله عز وجل وهو عملهما وهو من الايمان وفرض الله على اليدين أن لا يبطش بهما إلى ما حرم الله وأن يبطش بهما إلى ما أمر الله عز وجل وفرض عليهما من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والطهور للصلاة، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ وقال: ﴿إذا لقيتم الذين كفروا ف ضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها﴾ فهذا ما فرض الله على اليدين لأن الضرب من علاجهما، وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله عز وجل فقال: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ وقال: ﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ وقال فيما شهدت الأيدي والأرجل على أنفسهما وعلى أربابهما من تضييعهما لما أمر الله عز وجل به وفرضه عليهما: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾، فهذا أيضا مما فرض الله على اليدين وعلى الرجلين وهو عملهما وهو من الايمان.

وفرض على الوجه السجود له بالليل والنهار في مواقيت الصلاة فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ فهذه فريضة جامعة على الوجه واليدين والرجلين وقال: في موضع آخر: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا

مع الله أحداً ﴿وقال فيما فرض على الجوارح من الطهور والصلاة بها وذلك أن الله عز وجل لما صرف نبيه (صلى الله عليه وآله) إلى الكعبة عن البيت المقدس فأنزل الله عز وجل ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ فسمى الصلاة إيماناً فمن لقي الله عز وجل حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عز وجل عليها لقي الله عز وجل مستكماً لإيمانه وهو من أهل الجنة ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله عز وجل فيها لقي الله عز وجل ناقص الإيمان، قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه؟
فمن أين جاءت زيادته؟

فقال: قول الله عز وجل: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون سلطان وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ وقال: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولا استوت التعم فيه ولا استوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالإضافة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار^(٥٠).

من خلال هذه الرواية الشريفة تتضح النظرية القرآنية المستقاة من القرآن، والتي استنبطها منه إمامنا الصادق (ع)، حيث بين من خلال هذه النظرية الفرق بين الإيمان والعمل، وما هي حقيقة الإيمان، ودرجاته، وهل يزيد وينقص، وما هي وظيفة كل عضو كي يكون مؤمناً، ومن ثم لم يترك الإمام (ع) شاردة ولا واردة تخص موضوع الإيمان إلا وبينها، وبين رؤية المدرسة الإمامية لمسألة (الإيمان) في قبال النظريات الإسلامية الأخرى. حيث خلص الإمام (ع) في نهاية الرواية إلى أن العبد الذي يمثل ما

جاءت به الآيات الشريفة التي عرضها الإمام (ع) بخصوص (الإيمان) يكون هو المؤمن الحقيقي الكامل، ومن قصر في عمل جارحة من الجوارح التي فرض الله سبحانه عليها الإيمان فقد خان ما أمر به، أو أنه سيخرج من الدنيا وإيمانه إيمانا ناقصا.

وقد اتضح جليا أن الإيمان ليس نطق الشهادتين فحسب، وليس الإيمان إقرار باللسان، أو الإذعان في القلب كما ادعى ذلك المرجئة^(٥١)، وقد رد الإمام هذه الادعاءات، وأثبت (ع) من خلال الآيات الشريفة أن الإيمان عمل كله، وثبت من خلال كلام الإمام (ع) أن هذه النظرية تنطبق على كل العصور، وكل الأجيال لا يحدّها زمان أو مكان.

٢ - قاعدة معرفة الذنوب الكبيرة:

كثر الحديث عن الذنوب الكبيرة، هل هي سبعة، أم سبعة عشر، أم أقل من ذلك أو أكثر، وما هي الضابطة لمعرفة، هل لها حد تعرف به؟

فهناك من يقول: إنها ما اتفقت فيها الشرائع على تحريمها؟ أو أنها ما تسد باب المعرفة بالله؟ أو أنها ما تذهب الأموال والأبدان؟ أو أنها إنما سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها؟ أو أنها لا تعلم أصلا؟

وهناك من يقول أنها إلى التسعين أقرب، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، أو أنها ما رتب عليها حد. أو ما توعد عليها بالنار، وهناك من كفر أهل الذنوب ولم يفرق بين ذنب وذنب^(٥٢)؟

في هذا النص الشريف يبين لنا الإمام الكاظم صلوات الله عليه الطريق لمعرفة الذنب هل هو من الكبائر أم لا، وهذا هو نص الرواية:

«عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني قال: حدثني أبو جعفر صلوات الله عليه قال: سمعت أبي يقول: سمعت أبي موسى بن جعفر (عليهما السلام) يقول:

دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله (ع) فلما سلم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ ثم أمسك، فقال له أبو عبد الله (ع) ما أسكنك؟ قال: أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله عز وجل؟

فقال: نعم يا عمرو!

أكبر الكبائر الإشراك بالله، يقول الله: ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾.

وبعد الإياس من روح الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾.

ثم الأمن لمكر الله، لأن الله عز وجل يقول: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

ومنها عقوق الوالدين؛ لأن الله سبحانه جعل العاق جباراً شقيماً وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فجزأوه جهنم خالدا فيها﴾ إلى آخر الآية.

وقذف المحصنة، لأن الله عز وجل يقول: ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾.

وأكل مال اليتيم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾.

والفرار من الرّحف؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير﴾.

وأكل الربا لأن الله عز وجل يقول: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾.

والسحر لأن الله عز وجل يقول: ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾.
والزنا لأن الله عز وجل يقول: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيمة ويخلد فيه مهانا﴾.
والييمين الغموس الفاجرة؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾.
والغلول لأن الله عز وجل يقول: ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيمة﴾.
ومنع الزكاة المفروضة لأن الله عز وجل يقول: ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾.
وشهادة الزور وكتمان الشهادة لأن الله عز وجل يقول: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾.
وشرب الخمر لأن الله عز وجل نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان وترك الصلاة متعمدا أو شيئا مما فرض الله، لأن رسول الله (ص) قال: من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة الله وذمة رسول الله (ص).
ونقض العهد وقطيعة الرحم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾.
قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هل من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم» (٥٣).

نلاحظ أن الإمام (ع) قد عدد الذنوب الكبيرة التي ذكرها الله سبحانه في الكتاب العزيز، وقد استند الإمام في كل (كبيرة) يذكرها إلى آية من آيات الكتاب العزيز، وقد اتخذ الإمام (ع) من الجهة الموضوعية طريقا لجمع الآيات التي ترتبط بمحل

السؤال. ومن خلال هذه الآيات التي جمعها الإمام (ع) وعرفها بأنها من الذنوب الكبيرة، يقيم لنا الإمام (ع) نظرية وقاعدة نعرف من خلالها الذنوب الكبيرة وهي: ان الذنوب الكبيرة ذنوب إما أن يكون قد نهى الناس عنها نهياً شديداً، أو تم الوعيد لمرتكبها بنار جهنم، أو ممن سوف تشمله لعنة الله سبحانه، أو العذاب الإلهي.. وقد جاءت مثل هذه العبارات في ذيل الآيات المذكورة.

إذن الإمام أسس لمعرفة الذنوب الكبيرة قاعدة عامة، وهي: أن الذنوب التي يمكن حسابها من الذنوب الكبيرة، هي تلك الذنوب والمعاصي التي ذكرت في القرآن الكريم، والتي أعقبتها الله سبحانه بالفاظ مثل: العذاب بالنار، اللعنة الإلهية، الخلود في النار، أو التعبير بلفظ (الكفر) و(الكافرين) (الخاسرين)....، وبعد هذه النظرية يتضح لنا من سياق الآيات، أي من الذنوب هو من الكبائر وأياً ليس كذلك.

٣ - أنواع الكفر في القرآن الكريم:

في هذا النص الشريف الوارد عن إمامنا الصادق صلوات الله عليه، يوضح لنا فيه الإمام أنواع الكفر ومراتبه، حيث عدد الإمام خمسة أنواع للكفر: كفر جحود عن علم، وكفر جحود عن غير علم، وكفر البراءة، وكفر الترك، وكفر التعم. وعند ذكر كل نوع يستشهد الإمام (ع) بآية من كتاب الله تعالى، ثم بعد ذلك يستخلص الإنسان قاعدة عامة لمصطلح (الكفر).

جاء في تفسير القمي، عن أبي عمر الزبيري، عن أبي عبد الله (ع) قال: الكفر في كتاب الله على خمسة وجوه:

فمنه كفر الجحود، وهو على وجهين:

أ - جحود بعلم.

ب - جحود بغير علم.

- فأما الذين جحدوا بغير علم فهم الذين حكى الله عنهم في قوله : ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾. وقوله: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فهؤلاء كفروا وجحدوا بغير علم.

- وأما الذين كفروا وجحدوا بعلم، فهم الذين قال الله تبارك وتعالى: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ فهؤلاء كفروا وجحدوا بعلم.

وقال (ع): نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه﴾ يعني رسول الله (ص) ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والإنجيل والزبور صفة محمد (ص) وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجره وهو قوله: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل﴾ فهذه صفة رسول الله صلى الله عليه وآله في التوراة والإنجيل وصفة أصحابه، فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله : ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

وكانت اليهود يقولون للعرب قبل مجيء النبي: أيها العرب هذا أوان نبي يخرج بمكة ويكون مهاجره بالمدينة، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يلبس الشملة، يجتزئ بالكسرة والتميرات ويركب الحمار العريّة وهو الضحوك القتال يضع سيفه على عاتقه لا يبالى من لاقى، يبلغ سلطانه منقطع الحف والحافر، لنقتلنكم به يا معشر العرب قتل عاد.

فلما بعث الله نبيه بهذه الصفة، حسدوه وكفروا به كما قال الله: ﴿وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

ومنه كفر البراءة وهو قوله: ﴿ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي يتبرأ بعضكم من بعض.

ومنه كفر الترك لما أمرهم الله وهو قوله: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر﴾ أي ترك الحج وهو مستطيع فقد كفر.

ومنه كفر النعم وهو قوله: ﴿ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر﴾، أي ولم من يشكر نعمة الله فقد كفر، فهذه وجوه الكفر في كتاب الله (٥٤).

من خلال هذه الرواية يبين لنا الإمام (ع) أن الكفر — كما هو الإيمان — له مراتب، فيما يخص كفر الجحود بنوعيه — بعلم وبغير علم — فهذا النوع يوجب الخلود بالنار، أما كفر البراءة، فهو مختص بنزاع وتشاجر أهل النار حيث يتبرأ بعضهم من بعض، وفيما يخص كفر الترك، فهذا النوع موجب للعقاب والعذاب الإلهي، وقد يقع فيه بعض المسلمين، حيث يكون قادرا على أداء فريضة الحج، ومع ذلك لا يؤدي ما افترض الله عليه. أما كفران النعم، أي نكرانها، وعدم شكر المنعم، وهذا النوع أيضا نشاهده عند بعض الناس، حيث يتناسى جميع التعم الإلهية.

إذن هناك كفر يستوجب النار، وهناك كفر يستوجب العذاب الإلهي، وهناك كفر يختص بأهل جهنم حيث يكفر بعضهم ببعض، أي يتبرأ بعضهم من بعض. من خلال هذه الرواية الشريفة تتضح الرؤية القرآنية لنظرية الكفر، حيث بينها الإمام (ع) بأروع بيان.

هذه نماذج من استنطاق أهل بيت العصمة (عليهم السلام) لآيات الكتاب العزيز، يمكن لباحثي القرآن الكريم أن يتخذوا من روايات الأئمة المعصومين (عليهم السلام) منارا يستهدون به في عملية البحث عن التفسير الموضوعي.

المبحث الثالث

جهود علماء الإمامية في التفسير الموضوعي

توطئة:

عكف علماء المدرسة الإمامية وباحثوها على دراسة وتفسير القرآن منذ القرن الثاني الهجري، حيث تصدى أصحاب الأئمة (عليهم السلام) إلى التأليف في التفسير والمباحث القرآنية على اختلافها، وقد بدأت حركة التأليف تلك منذ القرن الثاني وأشرنا فيما سبق إلى أن محمد بن سائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) وضع كتابه (أحكام القرآن) في تلك الحقبة.

على الصعيد الفقهي، المسألة جد واضحة حيث صنف علماء الإمامية ومنذ زمن بعيد كتبهم الفقهية اعتمادا على الموضوع الذي تدرج الآيات الكريمة تحته، وقد قطعوا في ذلك أشواطاً متقدمة، ويعزو السيد محمد باقر الصدر سبب التطور الذي شهدته الساحة الفقهية هو اعتماد الفقهاء على هذا النوع من التصنيف التي تفرز الروايات وتضعها تحت موضعها الخاص بها «من خلال المقارنة بين الدراسات القرآنية والدراسات الفقهية نلاحظ اختلاف مواقع الاتجاهين على الصعيدين، فبينما انتشر الاتجاه الموضوعي والتوحيدي على الصعيد الفقهي — وما خطا الفقه والفكر الفقهي خطوات في مجال نموه وتطوره حتى ساد هذا الاتجاه جل البحوث الفقهية — نجد أن العكس هو الصحيح على الصعيد القرآني، حيث سيطر الاتجاه التجزيئي في التفسير على الساحة عبر ثلاثة عشر قرناً تقريباً» (٥٥).

ولسنا في هذا البحث المختصر نريد استقصاء كل من ألف في مجال التفسير الموضوعي، بل أردنا الإشارة إلى جهود مراجع الدين العظام في هذا المجال فحسب، وإلا فإن باحثي المدرسة الإمامية ومفكرها قد أغنوا هذا الجانب (التفسير الموضوعي) بعشرات المؤلفات والأبحاث، وقد أبدعوا في مؤلفاتهم وأبحاثهم تلك.

لذا سنمرّ مروراً سريعاً على جهود مراجع الطائفة بشكل عام، ونقف عند جهود المرجع السيد محمد باقر الصدر (ره)، بوصفه أول من قام بالتنظير لهذا الحقل المعرفي ووضع أسسه.

لقد مرّ بنا أن محمد بن سائب الكلبي (ت ٤٦ هـ) أحد أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام)، كان أول من اعتمد هذا الأسلوب في كتابه الموسوم بـ (أحكام القرآن). يمكن عدّ كتب آيات الأحكام أحد فروع التفسير الموضوعي، حيث قام بعض المفسرين بجمع الآيات التي يجمعها موضوع واحد، ومن ثم معرفة كل تفاصيل وتفرعات الحكم الفقهي، أو استنتاج بعض القضايا من تلك الآيات، وإن كانت تلك الممارسات التفسيرية ذات الطابع الموضوعي قد اقتصرّت على آيات الأحكام، ومن أشهر تلك الكتب كتاب (كنز العرفان في فقه القرآن)، للفاضل المقداد السيوري (ت ٨٢٦ هـ)، وكتاب (زبدة البيان) للمحقق الأردبيلي (ت ٩٩٣ هـ).

وقد ذكر صاحب الذريعة كتب آيات الأحكام وأوصلها إلى ثلاثين مؤلفاً^(٥٦). نشير هنا أيضاً إلى العلامة المجلسي في بحاره، إذ كان له دور بارز على هذا الصعيد، ولعل أحسن من صنف الآيات على حسب المسائل الإسلامية ووزعها في حقول مباحثها الزاهية بشكل دقيق ومستوفٍ، هو العلامة الكبير المجلسي في بحار أنواره. نراه صنف الآيات بدقة فائقة بحث لم يشذ عنه شيء، ووزعها على مطالع الأبواب في كل حقل من حقول المباحث الإسلامية العريقة^(٥٧).

وعن جهود المجلسي يقول الشيخ السبحاني: «لعل العلامة المجلسي (ت ١١١١ هـ) أول من فتح هذا الباب على مصراعيه في موسوعته (بحار الأنوار)، حيث يورد في أول كل باب الآيات الواردة حوله ثم يفسرها اجمالاً، وبعد الفراغ منها، ينتقل إلى الأحاديث التي لها صلة بالباب» (٥٨).

أما في عصرنا الحاضر، على الخصوص في القرن الرابع عشر، فقد نما وتطور التفسير الموضوعي وخطا خطوات واسعة، وقد نهض علماء المدرسة الإمامية وباحثوها بهذه المهمة خير نهوض، وقد كانت تلك البدايات مع جهود السيد جمال الدين الأفغاني في مقالاته التفسيرية التي نشرها في مجلة (العروة الوثقى).

وإذا ما أردنا استقصاء المؤلفات التي كتبت في التفسير الموضوعي من قبل علماء وباحثي المدرسة الإمامية — على الخصوص المعاصرين منهم — فسيطول بنا المقام في هذه الدراسة المختصرة، ولكن سنكتفي بإشارة سريعة إلى بعض علماء ومراجع المدرسة الإمامية في هذا المضمار:

١ - آية الله الشيخ جعفر سبحاني، له أثران جليلان هما: (مفاهيم القرآن) باللغة العربية يقع في (١٠) مجلدات، و(منشور جاويد) باللغة الفارسية في (١٢) مجلداً.

٢ - آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، فقد كتب تفسيره الترتيبي الشامل الموسوم بـ(التفسير الأمثل) ثم استخرج منه مباحث معينة وجعلها مواضع في حقول متناسبة أطلق عليها (ببام نور) (٥٩).

٣ - آية الله الشيخ جواد الأملي، في كتاب التفسير الموضوعي الذي طبع منه حتى الآن (١٣) مجلداً، بحث فيه أصول المعارف والأخلاق والآداب والسلوك والعرفان.

٤ - آية الله الشيخ محمد تقى مصباح اليزدي، له كتب في معارف القرآن والأخلاق والآداب، أي من قسم العرض على القرآن والاستلهاً منه، وعرض في أبحاثه مسائل

عدة، من جملتها: معرفة الله، معرفة العالم، معرفة الإنسان، على أنها معارف قرآنية، ونشر بحثين مستقلين هما: الأخلاق في القرآن، والمجتمع والتاريخ من وجهة نظر القرآن.

٥ - آية الله السيد محمد باقر الصدر، في كتابه (المدرسة القرآنية)، ويعدّ رضوان الله عليه ممن بحث التفسير الموضوعي بحثاً معمّقا وأشار وأكّد على ضرورته خصوصا في هذا العصر الذي كثرت فيه الآراء والاتجاهات بسبب الأمور المستحدثة التي طرأت على جميع الصعد، الفكرية، الاقتصادية، الاجتماعية، السياسية، فكان لابدّ من وجود نظريات قرآنية إزاء هذه المستجدات، وهذه هي مسؤولية العالم المفسّر الذي يستنطق القرآن ويحاوره لتتبلور عنده الرؤية القرآنية لأي مسألة معروضة على القرآن الكريم.

٦ - الشيخ مرتضى مطهري، المعرفة في القرآن، القرآن ومسألة الحياة، الفطرة في نظر القرآن، المجتمع والتاريخ، الإنسان في القرآن، حقوق المرأة، تعدّد الزوجات، حقوق المجتمع الأساسية، الحرية، الفطرة، وغيرها من الأبحاث.

وهناك أبحاث في التفسير الموضوعي لعدد من العلماء نذكر منهم: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والشيخ محمد جواد البلاغي، والشيخ محمد أمين زين الدين، والسيد إسماعيل الصدر، والشيخ محمد تقى مصباح اليزدي، والشيخ محمد جواد مغنية.

كانت هذه إشارة سريعة إلى بعض مؤلفات علماء المدرسة الإمامية في مجال التفسير الموضوعي.

دور السيد الشهيد محمد باقر الصدر:

انطلق السيد الصدر في حركته التفسيرية من إيمانه الراسخ بصفة (القيمومة

الدائمية) للقرآن، قيمومة دنيوية، وقيمومة أخروية، ومن ثم قاده هذا الإيمان إلى أن تسليط فكره الثاقب على الآيات الكريمة لاستنباط النظريات منها، وهذا ما عبر عنه (ره) بقوله:

«ومن هنا تبقى للقرآن حينئذ قدرته على القيمومة الدائمية» قدرته على العطاء المستجد دائما، قدرته على الإبداع دائما؛ لأن المسألة هنا ليست مسألة تفسير لفظ، طاقات التفسير اللغوي ليست طاقات لا متناهية، بينما القرآن الكريم دلت الروايات على أنه لا ينفد، وصرح القرآن الكريم بأن كلمات الله لا تنفد» (٦٠).

من الملاحظ ان السيد الصدر كان يحاول كشف النقاب عن صروح النظريات القرآنية في الموضوعات التي ناقشها وعرضها على القرآن، وذلك في شتى الميادين، فنلاحظ ظهور كتاب (اقتصادنا) و(فلسفتنا) و(الأسس المنطقية للاستقراء) و(الاسلام يقود الحياة)، فقد حاول — وقد نجح إلى حد بعيد — إلى إيجاد نظريات إسلامية في قبال النظريات الغربية، بعد أن شتّعوا على الإسلام بأنه دين المساجد، ولا يمكنه قيادة المجتمع، وتشريعاته هي أمور عبادية فقط، من هنا عقد السيد الصدر العزم على إبراز النظريات القرآنية، وقد أقم فلاسفة المادة الغربيين واقتصاديينهم حجرا، وكذا المتقولين على القرآن بأنه نص يناسب ذلك العصر، وقد أتى على بنيانهم من القواعد، فلله دره وشكر الله سعيه.

أما على صعيد التفسير الموضوعي، فقد وضع أسس هذا العلم وكان له قصب السبق في ذلك.

صحيح ان هناك من كتب في التفسير الموضوعي ممن سبق السيد الصدر، كـ(محمد عبدالله دراز في كتابه دستور الأخلاق في القرآن الكريم)، أو (محمد الغزالي، في كتابه نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم) إلا أن تلك الأبحاث

لم تكن تنظيراً على الإطلاق، ولم تضع الأسس، ولم تبين الغاية الأساسية والمحورية من هذا الأسلوب التفسيري، وكل ذلك — أي التنظير ووضع الأسس وبيان الغايات من هذا التفسير — قد أشار إليه السيد محمد باقر الصدر بشكل مفصل لم يسبقه أحد في ذلك.

على أن هناك بعض الباحثين اقتبسوا أفكار السيد محمد باقر الصدر وصاغوها بعبارات أخرى دون الإشارة من قريب أو بعيد إلى صاحب هذه الأفكار وهذا مجانب لطريقة البحث العلمي^(٦١).

دور السيد الشهيد محمد باقر الصدر يأتي ليأخذ موقع الصدارة في هذا المجال، تلك الصدارة عبر عنها الباحث بشير عثمان (سلطان) بقوله:

«وفي هذه الأثناء يبقى العمل الذي قدمه محمد باقر الصدر هو العمل المتصدر لمعظم الاجتهادات، لأنه حاول فك عقدة التفسير، وحل إشكالية عدم حضوره وفعاليته، ووصل إلى وجوب الانطلاق من الواقع، والذهاب إلى النص للتوصل إلى نظرية أو تصور لعلاج الواقع، وهكذا دواليك»^(٦٢).

... يذهب أحمد الرحماني إلى أن التنظير للتفسير الموضوعي بدأ على يد الشاطبي، وهذا قد يصدق بعض الشيء على التفسير الموضوعي للسورة، لكنه لا يصدق على جميع أنواع التفسير الموضوعي... يبقى أن ظهور التنظير بالشكل المعروف ليس له تحديد تاريخي دقيق وإنما المعلوم أن هناك دراسات في التفسير الموضوعي... ثم تطورت هذه الطروحات حتى وصلت إلى قمة الإبداع في العمل الذي قام به محمد باقر الصدر في كتابه (السنن التاريخية في القرآن)^(٦٣).

وقد أجاد وأبدع الدكتور بشير بقوله: «حل إشكالية عدم حضوره وفعاليته» غاية في الدقة والروعة؛ إذ إن هذه النقطة — حسبما أعتقد — هي جوهر الحركة عند

السيد الصدر ودافعه الأول لكتابة أبحاثه التفسيرية تلك.

بنظر الباحث ان الصدارة والإبداع اللذان كانا على يد السيد محمد باقر الصدر؛ لأن السيد الصدر كان هو المنظر الأول والواضع للأسس العلمية لهذا الأسلوب، وقد سبق الجميع في ذلك عبر الأسس العلمية لهذا الأسلوب التي طرحها في كتابه المدرسة القرآنية.

نماذج مما قدمه السيد الشهيد محمد باقر الصدر في مجال التفسير الموضوعي: قدم السيد الصدر بعض التطبيقات في ميدان (التفسير التوحيدي الموضوعي)، تطبيقات ارتبطت بواقع الأمة والظروف التي تمرّ بها، والمتغيرات التي تمرّ بها، خصوصاً مع انتشار الأفكار والمذاهب الاقتصادية والفلسفية في وقته، وقد قام (ض) بعرض تلك الرؤى البشرية على القرآن الكريم لتحديد الموقف منها، من تلك القضايا التي اهتم بدراستها، سنحاول عرض بعض ما بحثه السيد الصدر ونرى كيف اّنه استطاع أن يقدم لنا نظريات في تلك الموضوعات التي قام ببحثها:

١ - نظرية الحرية في القرآن الكريم:

فيما يخصّ موضوع (الحرية في القرآن)، قدم درساً مقارناً لموضوع الحرية عند الحضارة الغربية وأوضح رؤية القرآن الكريم، وبادئ ذي بدء قام السيد الصدر بذكر الآيات الكريمة الدالة والمعرفة لهذا الموضوع، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (٦٤).

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٦٥).

وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٦٦).

يذكر السيد الصدر ان هذه الحرية هي شعور وإحساس أودعه الله سبحانه في

الإنسان مذكّره، وليس للكيانات (الحضارية) كالاشرائية أو الرأسمالية أو غيرها دخل في منحها للإنسان، وإن حاولوا لترويج لهذه الفكرة، أو إظهار أن الحرية هي من هبات الحضارة الغربية لبني الإنسان.

وهنا يبرز إشكال، وهو مسألة تحديد الحرية ومساحتها، فهل الحرية المطلقة هي التي توفر السعادة للإنسان؟ أم أن حدود الحرية تنتهي عند حريات الآخرين كما يقول الغرب؟

هذا التحديد والتعريف الغربي للحرية منقوص؛ إذ إن هناك أموراً يمكنها أن تحدّد مساحة الحرية وتقلصها وتضبط حركتها، وعلى رأس تلك الأمور هو الدين، شرائع الله سبحانه. وقد أغفلت الحضارة الغربية عامل الدين في تعمد واضح.

يضرب السيد الصدر مثالا عن الشخص المخمور، حيث له الحق في شرب ما شاء طالما أنه لم يعترض طريق الآخرين، ولم يتعدّ عليهم، أو يئالهم منه سوء! وهذا ما ترفضه النظرية القرآنية بالمطلق، حيث أن في النظرية الغربية نفس لعالم الآخرة، وزهد بما أوصى به أنبياء الله ورسله، وبالتالي ضياع فلسفة وجود الإنسان وحركته.

وبعد.. فهل هذه هي الحرية التي ترقى بالإنسان إلى مصاف الملائكة وتسمو بالروح الإنسانية إلى حضيرة القدس والقرب الإلهي؟!

لقد أدركت الإنسانية فيما بعد النتائج الكارثية والمرعبة لهذا التحلل من القيود الدينية بحجة الحرية الشخصية المطلقة، فعادوا اليوم لإيجاد حلول ترقية عليهم ينتشلون مجتمعاتهم المتردية في مستنقعات المادة والرذيلة بعد أن أطلقوا الحريات دون قيود أو حدود.

الحرية في المنظور القرآني التي يشير إليها السيد الصدر هي تلك التي تبدأ من العبودية المخلصة لله سبحانه، لتنتهي عند التحرر من كل أشكال العبودية المهيمنة، أي أن

أول خطوة في طريق الحرية هي بناء الإنسان لنفسه ومعرفته بأنه مخلوق إلى غاية وهدف، وقد قال إمامنا أمير المؤمنين (ع): «رحم الله امرئ علم من أين وفي أين وإلى أين». كيف يكون الإنسان حراً وهو عبدٌ للشهوات، شهوة المال، شهوة النكاح، شهوة الحكم، شهوة المأكّل...

إذن الإنسان الغربي بشكل خاص وغيره بشكل عام هو في مستنقع العبودية والشهوات، وأسيرٌ مغلول اليد إلى العنق.

النظرية القرآنية في الحرية تريد تحرير الإنسان قبل كل شيء من عبودية الشهوات، حتى تصبح الشهوة أداة للإنسان يستعملها في موقعها الصحيح، لا أن تكون قوة دافعة ومحركة ومسيطرة على إرادة الإنسان.

الحرية الحقيقية التي أرادها القرآن ليست تلك الحرية على الصعيد العملي التي يتبناها الغرب؛ لأنه — والحال هذه — سيتساوى مع الأنعام في ذلك، بل سينحدر دونها.

القرآن الكريم أراد تحرير الإنسان من الداخل، كي يسمو، والطريق الوحيد إلى ذلك هو (التوحيد)، حيث يرتبط الإنسان بخالقه الواحد، يرتبط بالجنان والنعيم الأبدي ورضوان من الله أكبر.

الحرية الحقيقية التي ينظر لها القرآن الكريم هي تلك التي يملك الإنسان معها إرادته ويتحكم في شهواته ودوافعها.

لقد رأينا كيف سما الرسول الأعظم (ص) بالبشرية حينما جاءهم بتعاليم السماء، ومن تلك التعاليم تحريمه للخمر، وكيف أوجد فيهم الإرادة في هجر الخمر وبكلمة واحدة، في حين نرى الغرب عاجزاً أمام إيقاف مجتمعه عن هذه الظاهرة القبيحة، فهم عبيد من حيث لا يشعرون..

ويخلص السيد الصدر إلى أن الحرية التي منحها القرآن للإنسان هي حرية روحية

وفكرية، لا حرية البدن والجوارح. في حين منحت الحضارة الغربية حرية جسدية مادية، وهذا ما تتمتع به الأنعام!

أما على صعيد الحرية الاجتماعية، فكما حطم الإسلام أصنام الشهوة لدى الإنسان، هنا أيضا قضى على الأصنام الاجتماعية وعبودية الأشخاص، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٦٧)، فالرب واحد، وليس لأحد الحق في تنصيب نفسه صنما للناس لكي يستعبدهم.

وهنا أيضا يعتبر السيد الصدر أن التوحيد هو لب هذه الحرية الاجتماعية؛ إذ الإنسان الموحد الذي يرى أنه عبد الله سبحانه، سوف لن يستشعر العبودية لأحد سواه سبحانه، وبعد تحرير الإنسان من الداخل، أي من شهواته، وتحرير الإنسان من الخارج، أي من عبادة الأصنام الاجتماعية، يبدأ الإنسان بحركته الحرة على صعيد السلوك العملي.

بقي نقطة غاية في الأهمية أشار إليها السيد الصدر، وهي الفهم الخاطئ الذي يقع فيه بعض الناس، إذ يسوِّغ لنفسه الانحراف وعدم التدين بدعوة الآية الكريمة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٦٨)، وهذه مغالطة كبيرة؛ إذ لا يمكن تحرير الإنسان من شهواته وغرائزه وتحريره من عبادة الأشخاص الاجتماعية عن طريق هدم عقيدة والدين، فإذا هدمنا الأساس والقاعدة لن تقوم قائمة للحرية التي أرادها الله سبحانه لعباده، والإسلام لا يعتبر عقيدة التوحيد من الأمور الشخصية المتروكة للإنسان، كما هو الحال في الحضارات الغربية، بل التوحيد هو القاعدة والأساس الذي أودعه الله سبحانه في فطرة الإنسان فقال سبحانه: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي

فَطَرِ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴿٦٩﴾.

كما أن القاعدة والأساس في الحرية الغربية هي عدم مناوئة فكرة الحرية وعدم تبني أفكارا دكتاتورية، فالغرب لا يسمح بهذا. وإن أشكلوا علينا وقالوا بأن الإسلام يصادر الحرية الشخصية على الصعيد الديني، ويقىد الإنسان بعقيدة التوحيد.

نقول في ردهم: إن الحضارة الغربية أيضا تمنع الإنسان من اختيار المذهب الفاشستي مثلا، أو اتخاذ الدكتاتورية مسلكا، من المؤكد أن لا تقبل الحضارة الغربية بهذا؛ لأنه يتنافى مع القاعدة والأساس عندهم. وهكذا فإن هدم التوحيد بداعي الحرية يتنافى مع المبادئ القرآنية، فلماذا لا يقبلون بهدم أسسهم ومبانيهم، ويفرضون على غيرهم تغيير قواعدهم ومبادئهم واعتقاداتهم؟! تلك العقائد والمبادئ والأخلاق التي استقينها من أعظم كتاب للبشرية، استقينها من خالق الإنسان وفطره، وهو سبحانه أعلم بمن خلق، أعلم بما يصلحه ويفسده، أعلم بما يضره وينفعه.

إن معنى مسألة الإكراه في الآية الشريفة أنه بعد أن اتضح الطريق إلى الله سبحانه، وامتاز الحق عن الباطل، فلا حاجة للإكراه، حيث لا يمكن الإكراه في الدين؛ لأنه عقيدة في القلب وليس مجرد كلمات يرددها لسانه، أو حركات جسدية تقوم بها جوارحه، إذ لا خير في إسلام لساني جوارحي؛ لأن الدين والعقيدة مركزهما القلب، ومنه تشع أنوار الإيمان على سائر الأعضاء.

٢ - نظرية العمل الصالح في القرآن الكريم:

بخصوص العمل الصالح وفق المنظور القرآني، قدم السيد الصدر درسا مقارنا موضوعيا بين النظرة الرأسمالية والنظرة الماركسية والنظرة الإسلامية في تقييم العمل. وقد صدر بحثه بالآيات الشريفة التي ذكرت العمل الصالح:

قال تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٧٠).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى

الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٧١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِزَارًا﴾ (٧٢).

لقد أقام القرآن الكريم قدرا كبيرا للعمل، وربط ذلك القدر بنية المرء وجعلها الأساس والمحور في أي عمل يقوم به، ومن ثم فقيمة والعمل وقدره ومقياس صلاحه وفساده تقاس بتلك النية، لا بنوع العمل.

لقد تنوعت القيم الخلقية التي يتبناها كل المذهب الاقتصادية والفلسفية، وهذا التبني كاشف عن الأسس التي تحكم هذا المذهب أو ذاك.

يرى النظام الرأسمالي أن كل عمل يحقق مصلحة للمجتمع ويساهم في تأكيد المظهر الخارجي والاجتماعي للعلاقات بين الأفراد على أساس المنفعة فهو عمل جدير بالاحترام، وكلما كان العمل ذا نفع للمجتمع كان العمل أرفع قيمة وأعظم مجدا في هذا الحساب الخلفي.

إذن العمل يقاس عند الحضارة الغربية بما يقدمه من منافع للفرد والمجتمع، ولا مكان في البين للدوافع النفسية وراء ذلك العمل، ونظرا لطغيان المادية في الحياة الغربية فقد أصبحت كل الأعمال ذات المنفعة هي أعمال نبيلة يستحق صاحبها الشكر والثناء، فبناء المشاريع الخيرية من مدارس ومستشفيات التي يقوم بها بعض الأثرياء، هي أعمال حسنة في علم النظام الرأسمالي، بصرف النظر عن الدوافع النفسية وراء تلك الأعمال.

هذه الأعمال— كما يرى السيد الصدر— هي أعمال ضيقة وذات تأثير محدود ونفع أني.

في النظام الماركسي أيضا لا يختلف كثيرا عنه في الرأسمالي، حيث يرى أن صراع الطبقات المجتمعية، صراع الطبقات الفقيرة والمتوسطة لنيل حقوقها مع الطبقات القديمة التي تحاول الحفاظ على مكاسبها ومكانتها صراعا مقدسا، ومقياس المنفعة يقاس بمدى نفعه للطبقة أو لا، فكل عمل يحقق مصلحة ونفعا للطبقة الجديدة فهو عمل مجّد ومحترم ويساهم في تطوير التاريخ، وكل عمل يحقق مصلحة للطبقة القديمة ويعمّق وجودها المجتمعي ويطيل مدة بقاءها هو عمل مذموم وقبيح ما دام لا يتوافق مع الأهداف العليا التي تؤمن بها الماركسية.

والخلاصة أن المنفعة الطبقيّة التي يحققها هذا العمل أو ذاك هي المقياس الخلقي والأساس في تسعير العمل، وبعبارة أخرى: النفع هنا يقاس بالنفع الذي يعود على الطبقة بشكل عام.

أما النظرية القرآنية للعمل وتقييمه، فهي مختلفة تماما عما هو عليه الحال في النظريتين الرأسمالية والاشتراكية.

النظرية القرآنية قائمة على أساس الدافع نحو العمل وليس المنفعة، والعمل يستمد قيمته من الدوافع، لا من المنافع، وهذا الدافع تسميه النظرية القرآنية (النية). وكثيرا ما أكّدت الأحاديث الشريفة على مسألة (النية)، وجعلتها خيرا من العمل نفسه، «نية المرء خير من عمله» (٧٣) و«يحشر الناس على نيّاتهم» (٧٤) و«إنما الأعمال

بالنيّات» (٧٥) حيث نلاحظ في هذه الأحاديث الشريفة أن الثناء جاء لما عقد في القلب لا لنفس العمل الخارجي، وهذا اختلاف جوهري وأساسي بين النظرية القرآنية والنظريات الأخرى، إذ تؤكد النظرية القرآنية على كون الدافع والمحفز هو نية

التقرب بهذا العمل أو ذاك إلى الله سبحانه، ولا ترى النظرية القرآنية أي قيمة للعمل مهما كبر بمعزل عن هذه النية، حتى لو انطوى على منافع كبيرة وعظيمة في أعين الناس، فالإسلام يريد صنع الإنسان أولاً.

والخلاصة أن النظرية القرآنية تقيس الأعمال بالدوافع (النيات)، بينما النظريات الوضعية الأخرى تقيس قيمة الأعمال بالنتائج والمنافع، ولقد جسدت الآية الشريفة ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾^(٧٦) هذه النظرية أروع تجسيد، حيث إن سقاية الحجيج، والقيامومة على إعمار البيت فيهما منافع للناس، ومع هذا لم يجعل القرآن الكريم قيمة لذينك العاملين، بل ذمهما، وأنكر عليهم مساواتهم تلك؛ لأن قيمة العمل تنطلق من دوافعه لا من مظهره الخارجي ونتائجه.

لذلك نرى الآيات الدامة للعاملين والعابدين الذين يراءون الناس بعبادتهم، ويجعلون السمعة أكبر همهم، فالنتيجة حبط العمل وصيرورته هباءً منثوراً.

وهنا نشير إلى قيمة صدقة السر والتكتم على أعمال البر التي أوصى بها القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ونطالع تصدق أهل البيت (عليهم السلام) بأرغفتهم في السر، وهم في أمس الحاجة لها، حتى باها الله سبحانه بفعلهم ملائكة السماء، وأنزل فيهم قرآناً يتلى أثناء الليل وأطراف النهار، وهكذا حادثة تصدق إمامنا أمير المؤمنين بخاتمه أثناء صلاته، حيث كان التصدق سرا، ولوجه الله سبحانه، فنزلت الآيات المباركة في ذلك، ونلاحظ جمع الحضور آنذاك لعشرات الخواتم عليهم يحضون بما حضي به الإمام صلوات الله عليه، ولكن هيهات..

وخلاصة النظرية القرآنية في العمل هي: أن القرآن يريد بناء الإنسان الكامل وتنظيم سلوكه وحركته، يريد القرآن إعطاء الإنسان حياة لا سلوكاً فحسب، فمجرد أفعال الخير إن لم تكن لله وفي الله سبحانه، فستعثرها الأعراض الأخرى

وتشوبها كثيرا من الشوائب، فنظرية العمل وفق المنظور القرآني هي عملية تربية تعنى بتهديب النفس أولا وقبل كل شيء.

٣ - النظرية القرآنية في تحليل عناصر المجتمع الفرعوني:

من السنن التاريخية التي ذكرها السيد محمد باقر الصدر هي مجتمع الظلم ومجتمع العدل، حي أكد أن ما يلحق بهما من آثار ليس منوطا بعالم الآخرة فحسب، بل إن آثار المجتمعين السلبية والإيجابية ستنعكس على المجتمع في الدنيا قبل الآخرة، حيث سيادة الظلم والتشتت والضياع وهدر الطاقات والإمكانيات في مجتمع الظلم، وهذه هي سمات المجتمع الفرعوني.

أما بالنسبة لمجتمع العدل، فيجعل السيد محمد باقر الصدر مسألة (التوحيد) هي العمود الفقري لهذا المجتمع، كما جعل (التوحيد) أساسا لنظرية الحرية ونظرية العمل الصالح اللتان مر ذكرهما.

المجتمع الموحد تذوب فيه الفوارق والطبقات والاستبداد؛ لأن سمو مبدأ التوحيد وشموليته تضمحل معه كل الاختلافات وتختفي فيه كل الصراعات النفعية وتموت فيه نزعة الاستبداد، حيث لا تمييز ولا تفاضل بين الفئات المجتمعية إلا على أساس التقوى، ولا مكان للقومية أو العرق أو اللون أو الجنس، هذه الوحدة المجتمعية صورتها الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٧٧)، أمة واحدة ورب واحد، فلا طبقات مجتمعية ولا أرباب متفرقون.

وعلى النقيض من هذا المثل الأعلى الودوي، يأتي المثل الفرعوني الهابط، الممزق للأمة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾^(٧٨)، هذه الشيع صنفها السيد باقر الصدر إلى طبقات ست:

الطبقة الأولى: ظالمون مستضعفون: وهم أعوان الظلمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ

الظالمون موقوفون عند ربهم يزجج بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا

للذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين^(٧٩)، فهنا ظالمون مستكبرون وهم الطغاة، وظالمون مستضعفون هم أعوان الظلمة.

الطبقة الثانية: ظالمون متملقون: وهم الذين يزينون أفعال الظالم ويبررون له كل أفعاله، قال تعالى: ﴿وقال الملائكة من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون^(٨٠)﴾.

الطبقة الثالثة: همج رعا، أصحاب الجهل المركب، حيث لا يستشعرون الظلم ولا يعرفون أنهم غارقون فيه، آلات يحركها الظالم كيف شاء وهم له مستسلمون، عبرت عنهم الآية الكريمة ﴿قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل^(٨١)﴾.

هنا يقف السيد الصدر عند هذه الطبقة، باعتبارها تشكّل مشكلة في أي مجتمع صالح، ونجاح المجتمع يكمن في نقل هذه الطبقة من عالم الجهل والعمى إلى عالم النور والمعرفة، وأي مجتمع إذا ما أراد نهضة حقيقية لابد أن يصب جهوده على هذه الطبقة، في حين نرى القوى الظالمة تعمل على توسيع هذه الطبقة ونشرها بين أفراد المجتمع، عبر عملية تجهيل ممنهجة.

الطبقة الرابعة: منكرو الظلم في أنفسهم: يعرفون الظلم ويعرفون الظالم، لكنهم لا يحركون ساكناً، يعيشون حالة القلق والتوتر، وقد سماهم القرآن الكريم برظالي أنفسهم حيث يقول تعالى: ﴿الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها^(٨٢)﴾، يتصورون بسكوتهم هذا أنهم يناون عن الفتنة! وبعبارة أخرى

هم مهادنون للظلم على الصعيد العملي؛ لأن الآلية الكريمة أسقطت أَعذارهم تلك وجعلت من الهجرة ضرباً من ضروب الإنكار على الظالم.

الطبقة الخامسة: الرهبان، وهم الذين يهربون من مسرح الحياة، ويبتعدون عنه، وهم على نوعين، رهبانية جادة ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾^(٨٣)، وأخرى كاذبة مستأكلت بالدين ﴿إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين﴾^(٨٤).

الطبقة السادسة: المستضعفون: وهذه الطائفة تكون محط ظلم الطغاة، حيث يستشعر الطاغية وحزبه خطرهما على سلطانهم، فتكون محلاً لظلمهم وتنكيلهم، قال تعالى: ﴿إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وينذبون أبناءكم ويستخيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾^(٨٥)، قتل وتشريد وذبح للأبناء واستعباد للنساء.

هذا التحليل الدقيق لطبقات المجتمع الظالم الذي قدمه السيد باقر الصدر، هو تحليل واقعي، وقد لمسنا وعاشنا هذه الطبقات في ظل طاغية العراق المقبور. وهنا أذكر أن شدة هذا الوصف للطغاة والمجتمع الظالم قد أرعبت النظام الطاغية في العراق حتى قال أحد رجال نظام البعث البائد: «لو أن السيد سب الحكومة آلاف المرات لكان أهون عليها من هذه الدروس الموضوعية المحكمة»^(٨٦).

نلاحظ هنا، كيف أن السيد محمد باقر الصدر (ره) نزل بالتفسير الموضوعي إلى حاجات المجتمع، كيف لامس ما يعاينيه وما يميزه، وكيف عرض الرؤية القرآنية، وهذا بالضبط ما أكد عليه في حديثه عن مزايا التفسير الموضوعي، وهو معايشة الأحداث والمشاكل والأمور التي يعيشها الفرد، والتساؤلات التي تطرأ في ذهنه، ثم

يهرع إلى القرآن حاملاً معه تلك التساؤلات، باحثاً عن حل ومخرج لما ألم به.

هذه الرؤية المتكاملة لرسومات وطبقات المجتمع الظالم لا تخص المجتمع الفرعون، ففرعون مجرد علامة واسم للظلم والظالمين.

ويخلص السيد الصدر إلى أن المجتمع الفرعون مجتمع مجزأ مشتمت فكرياً واقتصادياً واجتماعياً، مهدور القابليات والطاقات، ومن هنا تحبس السماء قطرها، وتمنع الأرض بركاتها.

على النقيض من مجتمع العدل الموحد، الذي تتساوى فيه الفرص، وتتوحد فيه القابليات، وهنا يشير إلى مجتمع الإمام صاحب الأمر (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، حيث وعد الله سبحانه الطبقة الأخيرة المستضعفة بذلك، قال تعالى: ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ (٨٧).

قدم لنا القرآن الكريم صورة كاملة عن خصائص مجتمع الظلم ومجتمع العدل، وعن آثار ونتائج كل منهما، وهذه الرؤية القرآنية هي سمة من سمن التاريخ التي تنطبق على كل المجتمعات الظالمة لا يحدّها زمان أو مكان.

لقد لاحظنا كيف استطاع السيد محمد باقر الصدر (ره) إنزال التفسير إلى معترك السياسة والاقتصاد والاجتماع وكيف استنبط منه، كيف حاور النص القرآني واستمع لأجوبته، فكان بحق رائد هذا المجال.

هذه الدراسة المختصرة حاولنا فيها جهد الإمكان أن نبرز دور علماء المدرسة الإمامية في مجال التفسير الموضوعي بشكل عام، ودور السيد الشهيد محمد باقر الصدر بشكل خاص، والله سبحانه نسأل التوفيق والسداد، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من آله وسلم تسليماً كثيراً..

- (١) سورة النحل: الآية ٤٤.
- (٢) العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي: ٢٤٨/٧، مادة (فسر).
- (٣) مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي: ٤٣٧/٣.
- (٤) لسان العرب، ابن منظور: ٣٩٦/٨، مادة (وضع).
- (٥) مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم: ١٥.
- (٦) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٢٩.
- (٧) مجلة المصباح، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وتطبيقاته، محمد هادي معرفة: ٦٤، العدد ١٩.
- (٨) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
- (٩) ينظر: التفسير الموضوعي مقارنات بين السيد الصدر وآخرين، جواد علي كسار: ٢٥.
- (١٠) ينظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي: ٢٢.
- (١١) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٦١/٢٧.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) وهو من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام).
- (١٤) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني: ٤٠/١.
- (١٥) التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، علي آل موسى: ١٣٠.
- (١٦) تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم: ١٠٤.
- (١٧) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٣٧.
- (١٨) م. ن: ٣٣.
- (١٩) م. ن: ٢٠.
- (٢٠) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٢٨.
- (٢١) م. ن.
- (٢٢) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٢٧.
- (٢٣) ينظر: المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٢٩.
- (٢٤) نفحات القرآن، الشيخ مكارم الشيرازي: ١١/١.
- (٢٥) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٤١.
- (٢٦) مجلة المصباح، التفسير الموضوعي وتطبيقاته، محمد هادي معرفة: ٦٥، العدد ١٩.
- (٢٧) سورة النحل: الآية ٤٤.
- (٢٨) نهج البلاغة، الخطبة ١٥٨.

- (٢٩) مجلة المصباح، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وتطبيقاته، محمد هادي معرفة: ٦٠، العدد ١٩.
- (٣٠) نفحات الولاية، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ٢٩٦/٥.
- (٣١) م.ن: ١٩١/٦.
- (٣٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي: ٩٠/١٦.
- (٣٣) م.ن: ٣١٧/٨.
- (٣٤) سورة النساء: الآية ٨٢.
- (٣٥) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبدالفتاح الخالدي: ٣٣. وأشار إلى ذلك أيضا د. أحمد الكومي في كتابه التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: ٢٠، الطبعة الأولى ١٩٨٢م.
- (٣٦) سورة الأنعام: الآية ٣٨.
- (٣٧) مجلة المصباح، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وتطبيقاته، محمد هادي معرفة: ٦١، العدد ١٩.
- (٣٨) الكافي، الشيخ الكليني: ٥٩/١.
- (٣٩) ينظر: «لقاء مع السيد محمد باقر حجتى»، مجلة بينات، العدد ١٠: ١٠٩ — ١١٣.
- (٤٠) ينظر: التفسير الموضوعي وإشكالية تحديد المصطلح، أ.م.د. إقبال وافي نجم، بحث منشور في مجلة بابل للعلوم الإنسانية، العدد الثالث، ٢٠١٧م.
- (٤١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.
- (٤٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.
- (٤٣) الإرشاد، الشيخ المفيد: ٢٠٦/١.
- (٤٤) سورة النساء: الآية ٦.
- (٤٥) سورة المائدة: الآية ٦.
- (٤٦) سورة الجن: الآية ١٨.
- (٤٧) سورة الجن: الآية ١٨.
- (٤٨) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٧/٥٠.
- (٤٩) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع): ٥٥/١.
- (٥٠) الكافي، الشيخ الكليني: ٣٧/٢.
- (٥١) ينظر: بحوث في الملل والنحل، الشيخ جعفر السبحاني: ١٤١/٣ — ١٤٢.
- (٥٢) ينظر: في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية: ٢٤٥/٢.
- (٥٣) الكافي، الشيخ الكليني: ٢٨٥/٢.

- (٥٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ٩٢/٦٩.
- (٥٥) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٢٦.
- (٥٦) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٤٠/١ - ٤٤.
- (٥٧) ينظر: مجلة المصباح، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وتطبيقاته، محمد هادي معرفة: ٦٥، العدد ١٩.
- (٥٨) أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، الشيخ السبحاني: ٢٦٥.
- (٥٩) (ببام نور) تعني: نداء القرآن.
- (٦٠) المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر: ٣١.
- (٦١) كما فعل د. مصطفى مسلم في كتابه مباحث في التفسير الموضوعي، حيث نلاحظ بوضوح أفكار وأطروحة السيد محمد باقر الصدر وقد ساقها د. مسلم بعبارات أخرى دون الإشارة إلى السيد الصدر وكتابته على الإطلاق! وهذا خلاف الأمانة العلمية في كتابة الأبحاث.
- (سلطان) أستاذ الدراسات العليا في الجمهورية الجزائرية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين.
- (٦٢) بحث حول التفسير الموضوعي، الأستاذ بشير عثمان: ١٥، بحث منشور على شبكة الانترنت، جمهورية الجزائر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ٢٠١٤.
- (٦٣) بحث حول التفسير الموضوعي، الأستاذ بشير عثمان: ٣٤.
- (٦٤) سورة الجاثية: الآية ١٤.
- (٦٥) سورة البقرة: الآية ٢٩.
- (٦٦) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
- (٦٧) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
- (٦٨) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
- (٦٩) سورة الروم: الآية ٣٠.
- (٧٠) سورة التوبة: الآية ١٩.
- (٧١) سورة التوبة: الآية ١٨.
- (٧٢) سورة مريم: الآية ٩٦.
- (٧٣) زبدة البيان في بيان أحكام القرآن، المحقق الأردبيلي: ٥٦٣.
- (٧٤) الكافي، الشيخ الكليني: ٢٠/٥.
- (٧٥) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٤٨/١.
- (٧٦) سورة التوبة: الآية ١٩.
- (٧٧) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

- (٧٨) سورة القصص: الآية ٤.
 (٧٩) سورة سبأ: الآية ٣١.
 (٨٠) سورة الأعراف: الآية ١٢٧.
 (٨١) سورة الأحزاب: الآية ٦٧.
 (٨٢) سورة النساء: الآية ٩٧.
 (٨٣) سورة الحديد: الآية ٢٧.
 (٨٤) سورة التوبة: الآية ٣٤.
 (٨٥) سورة إبراهيم: الآية ٦.
 (٨٦) أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمد باقر الصدر، أحمد عبد الله أبو زيد: ١١٠.
 ٨٧ سورة القصص: الآية ٥.

المصادر والمراجع

القرآن العزيز، خير ما نبتدئ به.

١. الإرشاد، الشيخ المفيد، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لتحقيق التراث، الطبعة: الثانية، الناشر: دار المفيد، للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
٢. أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، الشيخ السبحاني، الطبعة الأولى، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق (ع)، قم، المقدسة، ١٤٢١ هـ.
٣. أطروحة التفسير الموضوعي عند السيد محمد باقر الصدر، أحمد عبد الله أبو زيد، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، ٢٠١١، بيروت.
٤. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، سنة الطبع: ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
٥. بحث حول التفسير الموضوعي، الأستاذ بشير عثمان، بحث منشور على شبكة الانترنت، جمهورية الجزائر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ٢٠١٤.

٦. بحوث في الملل والنحل، الشيخ جعفر السبحاني، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق (ع)، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، قم المقدسة.
٧. التدبر الموضوعي في القرآن الكريم، علي آل موسى، الناشر: دار كميل للطباعة والنشر، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، بيروت - لبنان.
٨. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار النفائس للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ٢٠١٢م، عمان - الاردن.
٩. التفسير الموضوعي مقارنات بين السيد الصدر وآخرين، جواد علي كسار، مؤسسة الثقلين الثقافية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
١٠. التفسير الموضوعي وإشكالية تحديد المصطلح، أ.م.د. إقبال وافي نجم، بحث منشور في مجلة بابل للعلوم الإنسانية، العدد الثالث، ٢٠١٧م.
١١. تفسير سورة الحمد، السيد محمد باقر الحكيم، الناشر: مجمع الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، قم المقدسة.
١٢. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آقا بزرك الطهراني، الطبعة الثالثة، الناشر: دار الأضواء، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م، بيروت - لبنان.
١٣. زبدة البيان في بيان أحكام القرآن، المحقق الأردبيلي، تحقيق وتعليق: محمد الباقر البهبودي، الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية - طهران.
١٤. عيون أخبار الرضا، الشيخ الصدوق، تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٤ / ١٩٨٤م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، مادة (فسر)، الناشر: دار الذخائر - قم - إيران.

١٥. في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنيتة، الناشر: انتشارات كلمة الحق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٦. الكافي، الشيخ الكليني، صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، الطبعة: الرابعة، سنة الطبع: ١٣٦٥ش، المطبعة: حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - تهران - إيران.

١٧. لسان العرب، ابن منظور، مادة (وضع).

١٨. مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، الطبعة الثالثة، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٩. مجلة المصباح، التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وتطبيقاته، محمد هادي معرفة، تصدر عن العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م.

٢٠. مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٣٦٢ش، المطبعة: طراوت، الناشر: مرتضوي.

٢١. المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر، الناشر: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٢. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، الطبعة: الرابعة، الناشر: بنياد فرهنگ امام المهدي (عجل الله تعالى فرجه).

٢٣. نفحات الولاية، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، إعداد: عبدالرحيم الحمراي، مدرسة الإمام أمير المؤمنين (ع)، قم، ١٤٢٦هـ.

٢٤. نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع)، شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى،

- سنة الطبع: ١٤١٢ / ١٣٧٠ ش، المطبعة: النهضة - قم، الناشر: دار الذخائر، قم - إيران.
٢٥. وسائل الشيعة، الحر العاملي، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، الطبعة: الثانية، سنة الطبع: ١٤١٤، المطبعة: مهر - قم.